مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١ كور ١٢: ٢٧–٣١؛ ١٣: ١–٨)

يا إخوةُ أنتم جسدُ المسيح وأعضاؤه أفراداً* وقد وضع الله في الكنيسةِ أُناساً أولاً رُسلاً ثانياً أنبياءَ ثالثاً معلِّمين ثمَّ قوَّاتٍ ثمَّ مواهبَ شفاءٍ فإغاثاتٍ فتدابيرَ فأنواعَ ألسنةٍ* ألعلَّ الجميعَ رسلٌ. ألعلَّ الجميعَ أنبياءُ. ألعلَّ الجميعَ مُعلِّمون. ألعلَّ الجميعَ صانعو قوَّاتٍ* ألعلَّ للجميعِ مواهبَ الشفاءِ. ألعلَّ الجميعَ ينطِقون بالألسنة. ألعلَّ الجميعَ يترجِمون* ولكن تنافسوا في المواهبِ الفُضلى وأنا أُريكم طريقاً أفضل جدًّا* إن كنتُ أنطِقُ بألسنةِ الناسِ والملائكةِ ولم تكن فيَّ المحبةُ فإنَّما أنا نحاسٌ يَطِنُّ أو صنجٌ يرنِ* وإن كانت لي النبوَّةُ وكنتُ أعلمُ جميعَ الأسرارِ والعلمِ كلَّهُ وإن كانَ لي الإيمانُ كلُّه حتى أنقلَ الجبالَ ولم تكن فيَّ المحبَّةُ فلستُ بشيءٍ* وإن أطعمتُ جميعَ أموالي وأسلمتُ جسدي لأُحرقَ ولم تكن فيَّ المحبَّةُ فلا أنتفعُ شيئاً* المحبَّةُ تتأنَّى وترفق. المحبَّةُ لا تحسُد. المحبَّةُ لا

المواهب

من أجمل الصور التي استخدمها الرسول بولس ليصف فيها الكنيسة وعلاقتها بالرب يسوع مخلّصها صورة الجسد؛ فالكنيسة بالنسبة إليه هي بمثابة جسد المسيح وهي ترتبط مباشرة برأسها الذي هو الرب يسوع نفسه، ويرتبط أيضاً أعضاؤها بعضهم ببعض بشكل متكامل. وكما أنّ لكل عضو وظيفة فإنّ لكل مؤمن في جسد المسيح موهبة. وأعضاء الجسد تتآزر وتتكامل لتصل إلى الغاية التي يحدّدها الرأس. فلكل عضو في الجسد وظيفة محدّدة، ولكلّ وظيفة في الجسد أهميّتها، بغض النظر عن نوع الوظيفة، وبالتالي فإن لكل عضو في الكنيسة موهبة محدّدة، ولكل موهبة في جسد المسيح أهميّتها.

لقد خصّص الرسول بولس قسماً من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (الإصحاحين ١٢ و١٣) ليشرح صورة الجسد هذه للمؤمنين في كورنثوس، ومنهم لكلّ المؤمنين الذين سيقرأون هذه الرسالة، ذلك لأنّ بعض المؤمنين في كورنثوس أخذوا يتفاخرون بمواهبهم على المؤمنين الآخرين، معتبرين أن مواهبهم تفوق المواهب الأخرى أهميةً.

الكنيسة هي جسد المسيح، والمسيح هو رأسها، والمؤمنون فيها هم أعضاء هذا الجسد. وكما أنّ الجسد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالرأس الذي هو مصدر حركته، كذلك المؤمنون مرتبطون مباشرة بالربّ يسوع، وهو مصدر حياتهم وحركتهم. والمواهب التي يتمتّع بها المؤمنون مصدرها واحد هو الثالوث القدوس نفسه، وغايتها منفعة الآخرين في جسد المسيح للوصول إلى ملء قامته: «فأنواعُ مواهبِ موجودةٌ ولكنَّ الروحَ واحدٌ، وأنواعُ خِدَمٍ موجودةٌ ولكنَّ الربَّ واحدٌ، وأنواعُ أعمالٍ موجودةٌ ولكنَّ اللهَ واحدٌ الذي يعملُ الكُلَّ في الكلِّ. ولكنَّه لكلِّ واحدٍ يُعطى إظهارُ الروحِ للمنفعة؛ فإنَّهُ لواحدٍ يُعطى بالروحِ كلامُ حكمةٍ، ولآخرَ كلامُ علمٍ بحسبِ الروحِ الواحدِ، ولآخرَ إيمانٌ بالروحِ الواحدِ، ولآخرَ مواهبُ شفاءٍ بالروحِ الواحدِ، ولآخرَ عملُ قوَّاتٍ ولآخرَ نبوءةٌ، ولآخرَ تمييزُ الأرواحِ، ولآخرَ أنواعُ ألسِنةٍ، ولآخرَ ترجمةُ ألسِنةٍ، ولكنَّ هذه كلَّها يعملُها الروحُ الواحِدُ بعينهِ قاسماً لكلِّ واحدٍ بمفردهِ كما يشاءُ» (١ كور ١٢: ٤–١١).

ويشدّد الرسول بولس على تساوي

العدد ٢٦/٢٠٠٧

الأحد ١ تموز

تذكار القديسَين الصانعَيْ العجائب الماقتَيْ الفضة قزما وداميانوس المستشهدَين في رومية

اللحن الرابع

إنجيل السَحَر الخامس

تتباهى ولا تنتفخ* ولا تأتي قباحةً ولا تلتمسُ ما هو لها ولا تحتدُّ ولا تظُنُّ السوءَ* ولا تفرَحُ بالظلمِ بل تفرحُ بالحقّ* وتحتملُ كلَّ شيءٍ وتُصدِّق كلَّ شيءٍ وترجو كلَّ شيءٍ وتصبرُ على كلِّ شيءٍ* المحبَّةُ لا تسقطُ أبداً.

الإنجيل

(متى ٨: ٢٨–٣٤؛ ٩:١)

في ذلك الزمان لمَّا أتى يسوعُ إلى كورةِ الجرْجُسيين استقبَلَهُ مجنونانِ خارجانِ مِنَ القبورِ شرسانِ جدًّا حتى إنَّه لم يكنْ أحدٌ يقدِرُ أن يجتازَ من تلكَ الطريق* فصاحا قائلَين ما لنا ولك يا يسوعُ ابنَ الله. أجِئتَ إلى ههنا قبلَ الزمانِ لتُعذِّبنا* وكان بعيداً منهم قطيعُ خنازيرَ كثيرةٍ ترعى* فأخذ الشياطينُ يطلبون إليهِ قائلينَ إن كنتَ تُخرجنا فائذَنْ لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير* فقال لهم اذهبوا. فخرجوا وذهبوا إلى قطيعِ الخنازير. فإذا بالقطيعِ كلِّه قد وثبَ عن الجُرْفِ إلى البحرِ وماتَ في المياه* أمَّا الرُّعاةُ فهربوا ومضَوا إلى المدينةِ وأخبروا بكلِّ شيءٍ وبأمرِ المجنونَين* فخرجتِ المدينةُ كلُّها للقاءِ يسوعَ. ولمَّا رأوهُ طلبوا إليهِ أن يتحوَّل عن تخومهم* فدخل السفينةَ واجتازَ وأتى إلى مدينته.

مواهب الروح في الأهميّة، فكما أنّ لكل عضو في الجسد أهميّته، ولا يمكن اختزال الجسد في عضو واحد، فلكل موهبة روحيّة أهميّتها في الكنيسة، ولا يمكن اختزال مواهب الروح في موهبة واحدة يعتبرها صاحبها أنّها أهم موهبة: «لأنَّه كما أنَّ الجسدَ هو واحدٌ وله أعضاءٌ كثيرةٌ وكلُّ أعضاءِ الجسدِ الواحدِ إذا كانت كثيرةً هي جسدٌ واحدٌ، كذلك المسيحُ أيضاً، لأنّنا جميعَنا بروحٍ واحدٍ أيضاً اعتمدنا إلى جسدٍ واحدٍ، يهوداً كنا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعُنا سُقينا روحاً واحداً. فإنّ الجسدَ أيضاً ليس عضواً واحداً بل أعضاءٌ كثيرةٌ... لو كانَ كلُّ الجسدِ عيناً فأينَ السَّمعُ، لو كانَ الكلُّ سَمعاً فأين الشَّمُّ؟ وأمّا الآنَ فقد وضعَ اللهُ الأعضاءَ كلَّ واحدٍ منها في الجسدِ كما أراد. ولكن لو كان جميعُها عضواً واحداً أين الجسدُ. فالآنَ أعضاءٌ كثيرةٌ ولكن جسدٌ واحدٌ. لا تقدرُ العين أن تقولَ لليدِ لا حاجةَ لي إليكِ... بل بالأولى أعضاءُ الجسدِ التي تظهرُ أضعفَ هي ضروريّةٌ... لكنّ اللهَ مزَجَ الجسدَ مُعطياً الناقصَ كرامةً أفضلَ، لكي لا يكونَ انشِقاقٌ في الجسدِ بل تهتمُّ الأعضاءُ اهتماماً واحداً بعضُها لبعض. فإن كانَ عضوٌ واحدٌ يتألَّمُ فجميعُ الأعضاءِ تتألَّمُ معه، وإن كان عضوٌ واحدٌ يُكرَّمُ فجميعُ الأعضاءِ تفرحُ معه» (١كور ١٢: ١٢–٢٦).

أمّا ماهيّة هذه المواهب، فيعدّدها الرسول بولس على سبيل المثال لا الحصر: الرسوليّة، النبوءة، التعليم، صنع العجائب، شفاء الأمراض، مساعدة الآخرين، موهبة التدبير، موهبة الألسنة وترجمتها (١ كور ١٢: ٢٨–٣٠). وكما ذكرنا سابقاً، فإن غاية هذه المواهب هي بنيان الكنيسة (١ كور ١٤)، وهذا يعني بنيان المؤمن نفسه صاحب الموهبة وبنيان الأعضاء الآخرين. غير أن الرسول بولس يشدّد على ارتباط هذه المواهب بالمحبة، تلك المحبّة التي لا تطلب ما لذاتها والتي هي على صورة محبّة الله المطلقة. ويذهب إلى القول بأنّ الموهبة بدون محبّة هي باطلة، لأنّ الموهبة لا تصل إلى غايتها بدون هذه المحبَّة؛ فإن كنتُ مثلاً أعظ الآخرين بكلمة الحياة، وليست لي محبّة للذين يسمعونني لكي تكون كلمتي بنّاءة فتصل إلى قلوبهم، لا بل أنتظر مجداً من الناس ومديحاً على ما أنطق به، تكون غاية الوعظ المجد الباطل، وإذا كنتُ أرتّل وأُعجب بجمال صوتي وأنتظر كلام الإطراء من السامعين لا يمكن لموهبتي هذه أن تصل إلى غايتها وهي مساعدة الآخرين على الصلاة، أو إذا كانت لي موهبة صنع العجائب أو شفاء المرضى وأنا أنتظر وسائل الإعلام لتبثّ ما أنا أفعله فيكون عملي كلّه باطلاً، لأنّه إذ ذاك يكون خالياً من المحبة. ولنا القدّيسان قزما ودميانوس، اللذان تعيّد لهما الكنيسة المقدّسة في الأول من شهر تموز، أبلغ مثال على ذلك؛ فقد منحهما الرب موهبة شفاء الأمراض، فأرادا أن يجعلا حياتهما وقفاً على خدمة الإنسانية مجاناً لوجه الله، وذلك تطبيقاً منهما لوصيّة الرب يسوع:«مجاناً أخذتم مجاناً اعطوا» (متى ١٠: ٨) المبنية على الوصية «أحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» (يو ١٥: ١٢)، مظهرين بذلك محبّتهما للآخرين من خلال موهبتهما.

المحبّة إذاً هي المرتكز الأساسي، فهي صفة الله: «اللهُ محبَّةٌ، ومَن يثبتْ في المحبَّةِ يثبت في اللهِ واللهُ فيه» (١ يو ٤:١٦). وبدون المحبة لا يمكن أن نصل إلى الله الذي أحبّنا أولاً وأرسل ابنه الوحيد كفارة

تأمل

«إن قال أحدٌ لماذا استجاب المسيح لطلب الشياطين وسمح لهم أن يدخلوا في قطيع الخنازير؟ نجيب قائلين إنه لم يفعل ذلك لمصلحة الشياطين. لكنه كان يريد من خلال عمله هذا أن يعلّمنا أشياء كثيرة: أولاً كان يريد أن يعلّم هؤلاء المحرَّرين من الطغاة الأشرار عظمة الخراب الناتج عن الشياطين الكائدين للناس. ثانياً حتى يعرف الجميع أن الشياطين لا تتجرّأ على الدخول حتى في الخنازير إن لم يسمح لهم الربُّ بذلك. ثالثاً ان الشياطين تستطيع أن تسبّب لهؤلاء الناس شروراً أرهب مما حدث للخنازير إن لم يصونوا نفوسهم وإلى درجة كبيرة في وسط شقائهم، بعناية الله. لأنه من الواضح لكل واحد أن الشياطين تُبغضنا أكثر من الحيوانات غير الناطقة. ولذلك الذين لم يرحموا الخنازير بل في لحظةٍ واحدة رموهم في الهاوية، كم بالأحرى سيفعلون بالناس أنفسهم الذين تحت سلطتهم فيقودونهم إلى البراري، إن لم تتدخل عناية الله إلى درجة كبيرة وسط هذه الحالة من الطغيان لكي تضع لهم حدّاً وتوقف هجماتهم اللاحقة. من كل هذا نستنتج بوضوح ان كل واحد منا يتمتع بعناية الله. وإن لم يستفِد الكل من

لخطايانا (١ يو ٤: ١٠)، وتكون بذلك كلّ المواهب التي يغدقها الله علينا باطلة، إن لم تقترن بالمحبّة: «إن كنتُ أتكلّمُ بألسِنةِ الناسِ والملائكةِ ولكن ليسَ لي محبَّةٌ فَقد صِرتُ نُحاساً يَطِنُّ أو صنجاً يرنُّ، وإن كانت لي نبوءةٌ وأعلمُ جميعَ الأسرارِ وكلَّ علمٍ وإن كان لي كلُّ الإيمانِ حتى أنقُلَ الجبالَ ولكن ليسَ لي محبَّةٌ فلستُ شيئاً وإن أطعمتُ كلَّ أموالي وإن سلَّمتُ جسدي حتى أحترقَ ولكن ليسَ لي محبَّةٌ فلا أنتفعُ شيئاً. المحبَّةُ تتأنّى وترفُقُ، المحبَّةُ لا تتفاخرُ ولا تنتفخُ ولا تُقبِّحُ ولا تطلُبُ ما لِنفسِها ولا تحتدُّ ولا تظنُّ السوءَ ولا تفرحُ بالإثمِ بل تفرحُ بالحقِّ، وتحتمِلُ كلَّ شيءٍ وتُصدِّقُ كلَّ شيءٍ وترجو كلَّ شيءٍ وتصبِرُ على كلِّ شيءٍ. المحبَّةُ لا تسقطُ أبداً» (١ كور ١٣: ١-٨).

القديس أندريه روبليف

في الرابع من شهر تموز تعيّد الكنيسة المقدسة للقديس أندريه روبليف، الراهب كاتب الأيقونات، الذي عاش بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد. وقد أعلن المجمع المقدس للكنيسة الروسية قداسته رسمياً سنة ١٩٨٨.

التفاصيل عن حياة الرجل قليلة للغاية، والمعالم الدقيقة المؤكدة عنه تحكيها فقط أيقوناته. معروف أن القديس أندريه كان راهباً في دير على اسم القديس أندرونيكوس في موسكو، وأن انطلاقته في الفن المقدس كانت من دير الثالوث الأقدس، الذي أسسه القديس سرجيوس رادونيج، وفي مشاغل الأيقونات في الدير نفسه. أحد السجلات العتيقة يشير إليه باسم «الراهب أندريه رادونيج، المكنّى روبليف».

زمن نشأة البار أندريه روبليف كان مفصلياً في تاريخ الأمة الروسية، لا سيما إثر بداية تحرير روسيا من التتار بعد معركة كوليكوفو الكبرى سنة ١٣٨٠. شعب روسيا عاد يعتز بهويته وتراثه، وبدأت النهضات الثقافية والتراثية تتوالى ملتفة حول موسكو مرجعة إليها بريقها. الزمن هذا كان أيضاً عصر القداسة الذهبي في روسيا، وزمن نهضة الرهبانية بكافة أشكالها من جديد، ومعها وحول أديارها صارت تزهر الثقافة والفنون. إنه أيضاً عصر القديس سرجيوس رادونيج، وهو الذي طبع بالتأكيد زمانه بطابع قداسته الفريد.

أول مرة ذكرت السجلات اسم الراهب أندريه روبليف كانت سنة ١٤٠٥، من ضمن مجموعة الرسامين الذين أنجزوا أيقونات كاتدرائية رقاد السيدة في الكرملين، تحت إشراف فنان يوناني لامع آنذاك اسمه ثيوفانس. وبالرغم مما كان لهذا الأخير من تأثير في فن الأيقونة الروسي، بقي روبليف يبتني نمطه الخاص الذي بات يتجلّى عملاً بعد عمل. سنة ١٤٠٨ تولى الراهب أندريه، مع زميل له ثان اسمه دانيال، تزيين كاتدرائية رقاد السيدة في فلاديمير. وفي العام ١٤٢٢، انتدبه الراهب نيكن، التلميذ الحبيب للقديس سرجيوس رادونيج، إلى ديره لتزيين الكنيسة المشادة حديثاً على اسم الثالوث الأقدس. بعد نجاز هذه الورشة عاد الراهب أندريه إلى دير القديس أندرونيكوس حيث شارك في تزيين كنيسة التجلي الإلهي، وهناك رقد بالرب في التاسع

عنايته بطريقة متساوية وبالطريقة نفسها فهذا يشكّل أيضاً نوعاً مميّزاً لعنايته الكبيرة لأن عنايته تظهر بقدر يتناسب مع فائدة كل واحد.

وإلى جانب كل ذلك تعلّمنا العجيبة شيئاً آخر. إن الله لا يعتني بالكل بطريقة واحدة مشتركة لكنه يتطلّع إلى كل واحد على انفراد. هذا الذي يبيّنه لتلاميذه قائلاً: «فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة» (متى ١٠:٣٠). ويمكن لنا أن نتأكد من ذلك بصورة أوضح عن طريق هؤلاء الرجال الذين بهم شياطين. فكان يمكن لهم أن يختنقوا لو لم تتدخل إلى درجة كبيرة عناية الله من أجلهم. لذلك سمح الرب للشياطين أن تدخل في قطيع الخنازير لكي يتعرّف سكان تلك القرى إلى قوّته. لأنه حيث كان اسمه معروفاً جداً لم يُظهر قوته لدرجة كبيرة ولكن حيث لم يكن يعرفه أحد هناك جعل عجائبه تشعّ من أجل جذب الجميع للإعتراف به كإله. هذا ما حصل مع سكان كورة الجُرجسيين الذين كانوا في جهل كبير كما يتبيّن في نهاية الرواية حين كان يجب عليهم أن يسجدوا له مُعجَبين بقدرته بينما على العكس نراهم يطردونه «وطلبوا إليه أن يتحوّل عن تخومهم» (متى ٨:٣٤).

القديس يوحنا الذهبي الفم

من كانون الثاني سنة ١٤٣٠ كما تشير بلاطة ضريحه التي بقيت محفوظة حتى أوائل القرن التاسع عشر.

معاصرو الراهب أندريه يصفونه بأنه متواضع للغاية، تلازمه سمات الفرح والصفاء. وعلى مثال هذه السمات كان دائماً نتاجه الفني. في أيقوناته عمق لا مغالاة في وصفه بالرؤيوي، تحمله معالم الفرح والرقّة والسلام.

لعل أبرز ما ترك لنا القديس أندريه روبليف هو الأيقونة المعروفة باسم الثالوث الأقدس، التي تنقل بشكل جديد حدث زيارة الملائكة الثلاثة إلى إبرهيم وساره (تكوين ١٨)، وقد خطّها الراهب القديس سنة ١٤١١ وهو في أوج استنارته. عبقرية تحكّمه بالخطوط وشفافية الألوان جعلت في الأيقونة أبعاداً تطفو بشفافية دون أن تتمازج، وكل منها محدد بذاته دون تباعد. منذ أواخر القرن السادس عشر، وقت أعيد اكتشاف الأيقونة من جديد، انحنى عليها دارسون كثيرون بحثاً وتمحيصاً، وكان هاجس غالبيتهم إن لم نقل كلّهم التعرف إلى شخصيات الأيقونة الثلاث، الجالسين بهذا الهدوء السماوي حول الطاولة الصغيرة، وسماتهم سمات التأمل. مَنْ في الأيقونة هو الآب، من هو الإبن أو الروح القدس؟ سؤالهم هذا بقي دون جواب، وإن تعددت فيه النظريات، لأنه في أيقونة روبليف غير مطروح أصلاً. الملائكة الثلاثة متطابقون كلياً، تميّز بينهم ألوانُ ثيابهم وحسب. التركيب الهندسي البالغ الدقة - الذي ليس مألوفاً – هو المسيطر في الأيقونة إذ يخلق فيها ديناميكية دائمة إيقاعها الهدوء والتوازن والتناسب الهندسي. أما قراءة هذه الأيقونة بعين المؤمن فتؤكد رؤيويتها، إذ هي تحكي الثالوث الأقدس في سرّ حبّه ووحدانيته وفرادة أقانيمه لا انفراد أقنوم عن آخر.

التقليد العبادي في كنيستنا اعتاد أن يرى في أيقونة روبليف ظهوراً للثالوث القدوس، على عكس سابقاتها من الأيقونات التي تحكي حدث ضيافة إبراهيم. وقد لا نغالي إن قلنا إن رغبة روبليف نفسه، أو على الأصح ما كشفه الوحي الإلهي له وهو يكتب أيقونته، أن لا يُدمغ أي من أشخاص الأيقونة باسم. الملائكة الثلاثة متماهون ومتمايزون في آن، وفي كل منهم - إن في النظرة أو في حركة اليد أو الألوان شيء من سمات الكل. لكل منهم خاصياته الشخصية، وملامح تماهيه مع الكل. الثلاثة في ديناميكية واحدة دائرية، توحي بأنها تتجه من اليمين إلى الشمال (ملاكَيْ اليمين والوسط ينظران ناحية ملاك الشمال) أي بعكس عقارب الساعة وهو ما يشير في رموزنا العبادية إلى الخروج من أبعاد الزمن إلى أبدية الملكوت.

أيقونة روبليف حُكي عنها الكثير، ويمكن أن يُحكى عنها بعد أكثر. لسنا بصدد دراستها، لا فنياً ولا لاهوتياً، إذ نحن نحتفل بكاتبها الذي «نال في عيني الثالوث الأقدس حظوة فعاينه ، وصار لنا اليوم أمام عرش القدوس شفيعاً» كما تقول طروبارية عيده.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb